المعارضة والشرعية في الإمبراطورية العثمانية

كتبه: فلوريان ريدلر

فريبا زارينباف

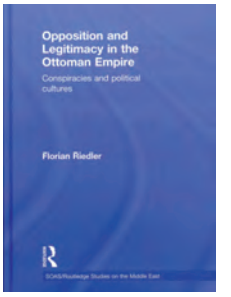

بحث العلماء الأتراك والغربيون تاريخ الثورات في الإمبراطورية العثمانية خلال بداية الفترة الحديثة بشكل جيد. يتناول هذا الكتاب خمس حوادث رئيسة حاولت فيها المعارضة خلال القرن التاسع عشر الإطاحة بالسلاطين. ويحاول ريدلر دراسة طبيعة هذه الحوادث، وخلفية الأشخاص المتورطين فيها والهدف من المعارضة، وذلك لمعرفة الاستمرارية والتغيير في الثقافة السياسية في فترة ما بعد التنظيمات. يرى ريدلر أنه في غياب الثقافة السياسية العامة، والأحزاب السياسية، وحكومة برلمانية بالإضافة إلى الكاريزما الشخصية، فإن الجمعيات السرية، وكذلك المؤامرات شكلت الثقافة السياسية للمجتمع العثماني. كما عملت إصلاحات التنظيمات على اتساع دائرة النظام المركزي، ووسعت من نفوذ الحكومة، وبالتالي كل هذا أدى إلى ظهور المعارضة داخل الطبقة الحاكمة والمجتمع بأسره، بما فيه الجماعات الدينية.

كانت الإنكشارية ("الجنود الجدد" أو "الجيش الجديد") والعلماء والشباب العثمانيون (البيروقراطيون الذين درسوا وتدربوا في المدارس الحديثة) في طليعة الثوار. على كل حال، يركز المؤلف على الأحداث في إسطنبول، عاصمة الإمبراطورية، أكثر مما يركز على الانتفاضات التي جرت على نطاق واسع في الأناضول والبلقان.

يقدم الفصل الأول خلفية عامة وموجزة عن الثقافة السياسية في الدولة العثمانية، مع التركيز على العاصمة. أما الفصل الثاني فيتناول حادث [كوللي]، الشهير الذي وقع في عام 1859، والذي نظمته حركة جمعية الشهداء لاغتيال السلطان عبد المجيد. عمومًا تم إلقاء القبض على مدبري محاولة الاغتيال، واستجوبتهم الشرطة، وكان من بينهم موظفون رفيعو المستوى في الدولة العثمانية وشيخ صوفي.

أما الفصل الثالث فيركز على شباب المعارضة العثمانية، وأنشطتهم في الإمبراطورية، عن طريق الصحافة المعارضة بقيادة إبراهيم شناسي وعلي سواوي، ونامق كمال باشا ومصطفى فاضل (ما يسمى بالتحالف الوطني)، المستوحى من كاربوناري الإيطالية، والمجتمع السري في إسطنبول. ويوضح الكاتب أن الشباب العثماني في باريس دعا إلى تشكيل حكومة برلمانية للحد من سلطة السلطان التعسفية ووزرائه. هذه الجماعة المعارضة التي تشكلت في المنفى في باريس سميت بجمعية الشباب العثماني، وأسست صحيفة حريت. لكن عندما فشلت محاولة اغتيال الوزير الكبير علي باشا في يونيو عام 1867، تم إلقاء القبض على أعضاء الجماعة المتورطة في محاولة الاغتيال (400 شخص)، ثم عاد النشطاء الباقون

إلى الإمبراطورية العثمانية وأقام معظمهم سلامًا مع الحكومة. كان مستوى معظم المتآمرين البيروقراطي منخفضًا، وكان من بينهم أربعة من أصحاب الخلفيات الدينية. ولم يتضح ما إذا كان قادة الشباب العثماني في باريس من ضمن الجماعة التي شاركت في تلك المؤامرة. عمومًا، كانت الصحافة المعارضة في المنفى (حريت، ومخبر)، والجمعيات السرية وسيلة المعارضة للتعبير عن آرائهم.

وعلى أية حال، فقد تفتتت الجماعة بسبب خلافات حول سياسات استرضاء الدولة العثمانية، وعاد معظم أعضائها إلى ديارهم بعد وفاة علي باشا في عام 1870. ويرى الكاتب أن الشباب العثمانيين انخرطوا في المعارضة السياسية التقليدية على الرغم من دعوتهم لإقامة حكومة دستورية حديثة. ويرجع هذا إلى غياب المؤسسات السياسية الرسمية، والقمع الحكومي والمراقبة وطبيعة السياسة، فلم يكن أمامهم خيار آخر. إنها قصة الدجاجة والبيضة، أيهما اولًا البيضة أم الدجاجة؟ الديمقراطية عملية لا يمكن أن تظهر في غياب المؤسسات الديمقراطية والثقافة العامة وكذلك في ظل غياب هياكل المجتمع المدني. كما أنه، في غياب الأحزاب السياسية المستقلة، لا مفر من أن الشبكات الشخصية، والصوفية والماسونية والصحف والجمعيات السرية ستشكل أهم منتديات النقاش والعمل السياسي.

يناقش الفصل الرابع صعود الخطاب الدستوري الذي غير الثقافة السياسية العثمانية من خلال الدعوة لوضع حدود لسلطة السلطان الدستورية، على الرغم من أن دستور 1876 أبقى على الكثير من صلاحيات السلطان التقليدية والتنفيذية، والذي كان بإمكانه غلق البرلمان في حالات الطوارئ.

ظهرت مرة أخرى المؤامرات كشكل من أشكال المعارضة، وقامت الحكومة بدورها المعتاد في القمع، مما خلق دولة بوليسية. يناقش الفصلان الخامس والسادس عددًا من مثل هذه الحوادث؛ فعلى سبيل المثال، في الفصل الخامس، تتم مناقشة حادث تشيراغان بقيادة علي سواوي ومجموعة من اللاجئين المسلمين من البلقان الذين سعوا لإعادة السلطان مراد الخامس إلى العرش في عام 1878. لكن هذه المؤامرة باءت بالفشل وتم إلقاء القبض على المشاركين فيها، ومحاكمتهم أمام محاكم عسكرية. يقارن المؤلف هذه الحادثة بحادثة [كوللي] الخاصة بأعمال الشغب، من حيث محاولة الإطاحة بالسلطان وفقًا لمبادئ الشرعية الإسلامية والتخلص من وزرائه، لكن دون أهداف واضحة ورؤية نحو التغيير السياسي الحقيقي.

أما الفصل السادس فيناقش مؤامرة نظمتها لجنة سكاليري عزيز في يوليو عام 1878، التي اكتشفتها الشرطة في مداهمة لمقرها. شارك في المؤامرة أصدقاء السلطان مراد الخامس، بهدف إعادة السلطان مراد الخامس إلى الحكم. ولكن على عكس المؤامرات السابقة، كان زعيم اللجنة يونانيًا عثمانيًا، وكان وسيطًا في البورصة، وصديقًا مقربًا من السلطان مراد الخامس، واسمه كليانتي سكاليري. وهكذا كان الوضع السياسي هشًّا؛ بعض الدعم السياسي للأسرة الحاكمة من الخارج، وقاعدة شعبية ضعيفة ومؤامرات، مع غياب رؤية واضحة نحو التحول السياسي.

يعتقد المؤلف أن عضوية بعض الشباب العثمانيين الرواد وسكاليري في الماسونية، كانت السبب وراء الطبيعة الغامضة للمعارضة السياسية. يتم عرض وجهة النظر هذه في نهاية الكتاب بدلًا من بدايته. ويوضح الكاتب أن الماسونية حظيت أيضًا بأهمية في إيران، ويظهر هذا في سياسة معارضي حكومة القاجاريين. ويبين الكاتب أن العديد من الأعضاء القياديين، مثل

ملكوم خان، بدأوا في الانخراط في مثل هذه الحركات في إسطنبول، ومنها المشرق الكبير، وبرودوس، التي روجت للأجندة الليبرالية، مثل المساواة بين جميع رعايا الإمبراطورية العثمانية. كما انخرط السلطان مراد الخامس نفسه في محفل المشرق الكبير (الماسوني). ويرى الكاتب أن التواصل الاجتماعي كان الهدف من العضوية في المحافل الماسونية، وليس الانخراط في الخطاب السياسي. ومع ذلك، لا تزال هناك حاجة إلى تحليل متعمق للماسونية في الدولة العثمانية.

يشير ريدلر إلى الشباب العثمانيين، ويصفهم بالبرجوازية البيروقراطية، ويرى أنهم كانوا نتاج إصلاحات التنظيمات والتعليم الحديث، لكنه لا يقدم الأمثلة الكافية للرموز المعروفة، ولا يكشف عن أفكارهم. ومع أنه يشدد على دور المنظمات غير الحكومية ووسائل الإعلام والصحف، لكنه لا يناقش محتوى هذه الصحف. وربما كان من الأفضل تخصيص فصل مستقل للإنتاج الفكري ومضمون صحف المعارضة. عمومًا، قد يكون الكاتب محقًّا في التركيز على دور العلاقات الشخصية والجمعيات السرية، أكثر من الشبكات الفكرية والأفكار السياسية المعارضة والثقافة السياسية خلال هذه الفترة. ومع ذلك، فإننا ما زلنا بحاجة لمعرفة ومناقشة خصائص وسمات تلك الشخصيات. وقد كان من الأفضل أن يناقش الكاتب قضية شريف ماردين عند دراسته للشباب العثمانيين. هناك أيضًا أخطاء هجائية في كلمة نقشبند، التي كتبت "نقشفند" (ص 73، 75، 80). ومع ذلك، فإن هذا الكتاب يعد عملًا جيدًا، حيث يفتح باب النقاش حول الثقافة السياسية في القرن الماضي، إبان الحكم العثماني في إسطنبول..